ويبدو أن هذه الاتفاقيات والالتزامات المختلفة والمتناقضة ، لم تقلق بال الزعماء البريطانيين أو بال حلفائهم الفرنسيين كثيرا ، عندما كانت جهودهم منصبة على تحقيق النصر في الحرب . إلا أن شكوك العرب في حقيقة الموقفين البريطاني والفرنسي راحت تثور ، تدريجيا ، مع بداية السنة الأخيرة من الحرب ؛ أي منذ أواخر سنة ١٩١٧ . وكان أحد الأسباب الرئيسية لذلك افشاء البلشفيين بعد انتصار ثورة اكتوبر ، مضمون اتفاقية سايكس ــ بيكو ، التي كان الحكم القيصري أيضا طرفا فيها . كما ساهم اصدار وعد بلفور في تقوية هذه الشكوك . واثار نشر هذه الوثائق ، بما تكشفه من مواقف تمس بحقوق العرب ، سخطا كبيرا في دوائر عربية عدة . ولكن بريطانيا وفرنسا ، اللتين كانتا تستعدان انذاك لخوض المعركة الاخيرة الحاسمة من الحرب العالمية ، لم تكونا في وضع يسمح لهما باثارة سخط العرب عليهما وعداوتهم ، في تلك المرحلة . ولذلك عمدتا ، منفردتين او متحدتين ، الى اصدار سلسلة من التصريحات والوعود الهادفة الى ازالة شكوك العرب وحملهم على الالتزام بالهدوء ، الى ان تنتهي الحرب على الاقل .

وهكذا ثابرت الدولتان على اغداق الوعود على العرب خلال سنة ١٩١٨ باكملها ؛ أي حتى انتهاء الحرب . ففي ٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، زار الكوماندر هوغارث ، احد العاملين في « المكتب العربي » البريطاني في القاهرة ، الشريف حسين ، الذي كان قد أعلن نفسه ملكا على الحجاز ، في جدة ، وأبلغه رسالة من السلطات البريطانية ، مفادها « أن دول الحلفاء مصممة على أن تتاح للشعب العربي فرصة كاملة لاستعادة كيانه كأمة في العالم . وأن هذا لا يتيسر تحقيقه إلا بواسطة اتحاد العرب انفسهم . وستتبع بريطانيا العظمى وحلفاؤها سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة »[١] . أما فيما يتعلق بفلسطين ، فقد اكدت الرسالة تصميم الحكومة البريطانية « على الا يكون شعبها خاضعا لغيره »[٢] . ولكن على الرغم من ذلك ، حصرت الرسالة القضية الفلسطينية في النواحي الدينية فقط ، فـ « بالنظر الى أن في فلسطين معابد وأوقافا وأماكن مقدسة ... ذات أهمية لكثير من الناس خارج فلسطين وبلاد العرب ، لا بد من أن يكون هناك نظام خاص بهذه الأماكن يوافق عليه العالم . أما فيما يتعلق بمسجد عمر ، فانه سيعتبر أمرا يعني المسلمين وحدهم ، ولن يكون خاضعا ... لاية سلطة غير اسلامية »[٣] . ولم تتنكر الرسالة للوعود التي قطعتها بريطانيا على نفسها للصهيونيين ، بل على العكس من ذلك ، أوضحت انه « لما كان الرأي العام اليهودي في العالم يميل الى عودة اليهود الى فلسطين ... ولما كانت حكومة جلالته تنظر بعين الرضى الى تحقيق هذا الأمل ، فانها ... مصممة على الحؤول دون وضع عقبة في سبيل تحقيقه ... ، بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الاهالي الموجودين ، من الوجهتين الاقتصادية والسياسية »[٤] . ولم ينس كاتبو الرسالة ان يسدوا ، في نهايتها ، النصح للملك بأن « تاييد اليهودية العالمية لقضية العرب ، معادلة لتاييد كل الدول التي لليهود فيها نفوذ سياسي ، وأن زعماء الحركة اليهودية مصممون على انجاح الصهيونية بالصداقة والتعاون مع العرب . ومثل هذا العرض ليس مما يطرح جانبا باستخفاف »[٥] .

وبعد تسليم هذه الرسالة ، بنحو شهر ، الى الشريف حسين ، زاره الكولونيل باسيت ، المفوض البريطاني بالوكالة في جدة ، وأبلغه رسالة ثانية من وزير الخارجية البريطاني بلفور ، اكد فيها التعهدات السابقة بشأن تحرير الشعوب العربية ، ولكن بلفور امتنع في رسالته عن التعليق على اتفاقية سايكس ــ بيكو والوعد الذي قدمه للصهيونيين ، وما قد يعنيانه بالنسبة